الفصل الثالث

الاستعمار الاستيطانى الصهيونى

المسألة اليهودية والمسألة الأوربية

نحن نذهب إلى أنه لا يوجد مسألة يهودية عالمية وإنما يوجد مسألة يهودية شرق أوربية، وهى مشكلة أعضاء الجماعات اليهودية فى شرق أوربا الذين كانوا يعيشون فى مجتمعات تعثرت فيها عملية التحديث فى الوقت الذى حدثت فيها طفرة سكانية بينهم فتحول أعضاء الجماعات اليهودية من جماعات وظيفية تقوم بوظيفة حيوية إلى جماعات وظيفية بلا وظيفة، وبالتالى تحولوا إلى فائض بشرى. بدءوا فى الهجرة إلى غرب أوربا. فواجهت أوربا إشكالية هذا الفائض البشرى الذى كان يهدد أمنها الاجتماعى، وبدأت تتخذ إجراءات للحد من هذه الهجرة. فلورد بلفور، على سبيل المثال، استصدر، حينما كان يشغل منصب رئيس الوزراء فى بريطانيا عام ١٩٠٥، قانون الغرباء لمنع اليهود من دخول إنجلترا، وطرح الحل الغربى للمسألة اليهودية.

ولا يمكن فهم هذا الحل إلا فى إطار ما أسميه «المسألة الأوربية»، وهو مصطلح قمنا بسكه لوصف ظاهرة لها انعكاسات عالمية. ولا يمكن فهم كثير من الظواهر فى كل أنحاء العالم، ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر، إلا فى علاقتها بالمسألة الأوربية. ويمكننا بشىء من التبسيط غير المخل أن نرى القانون العام الذى كان يتحكم بأوربا فى القرن التاسع عشر، فقد تفجرت داخل هذه القارة ثورة صناعية غيَّرت من علاقة الإنسان بالطبيعة تغييرًا جوهريًا فاستطاع الإنسان أن ينتج وفرة من السلع تفوق بمراحل ما يمكنه استهلاكه. ولكن هذه الوفرة من السلع - هذا «الخير» إن أردنا استخدام مصطلح أخلاقى - لم يحسن استخدامه بأى شكل، فالثروة فى

حد ذاتها لا تنتج ولا تثمر شيئًا وما يهم هو كيفية استخدامها وكيفية توزيعها واستهلاكها، ولذا فالثورة الصناعية فى أوربا قد نتج عنها خلل اجتماعى رهيب. فالسلع الوفيرة لم توزع بالعدل بين الناس مما أدى إلى انقسام المجتمع إلى أغلبية من الفقراء المعدمين الذين ينتجون ولا يستهلكون إلا النذر اليسير بسبب فقرهم، وأقلية من الأثرياء الذين لا ينتجون، ولا يستهلكون إلا النذر اليسير بسبب قلة عددهم. وقد تسبَّب هذا فى دورات من الكساد الاقتصادى حيث تتكدس السلع التى لا يستهلكها أحد، والعمال العاطلون غير قادرين على استهلاك شىء. ولذا فحل المسألة الأوربية فى ذلك الوقت كان يتلخص فى تصريف الفائض السلعى والفائض الإنسانى والتخلص منهما. بل إنه ظهرت مشكلة أخرى وهى الحاجة للمواد الخام اللازمة للمصانع (أو الطواحين الشيطانية كما سماها أحد الشعراء) حتى تدور ولا تتوقف قط عن الدوران وتنتج السلع التى لا يستهلكها أحد. ولكن الثورة الصناعية ذاتها سخَّرت الطاقة لخدمة الإنسان وجعلت من اليسير عليه أن ينتقل من مكان إلى مكان بيسر وسهولة، كما أصبح من الممكن لأى إنسان، بغض النظر عن أصله القومى أو الثقافى، أن يقطن فى أى مكان يختاره «حارًا شديد الحرارة أو باردًا شديد البرودة».

هذه العوامل مجتمعة (الفائض السلعى - الفائض البشرى - القدرة على التوسع والانتشار فى كل بقاع الأرض) تشكِّل جوهر المسألة الأوربية فى القرن التاسع عشر، كما تشير إلى الحل الأساسى المطروح. والحل - فى اقتصاد مبنى على الإنتاج والتصدير - كان هو تصدير المشاكل الأوربية إلى شعوب آسيا وإفريقيا، وتصدير المشاكل هو فى جوهره الاستعمار، إذ جيَّشت أوربا الجيوش وبنت الأساطيل وأنتجت السلاح واقتسمت العالم

كله (باستثناء بضعة جيوب صغيرة نائية مثل اليابان كانت تحف بمحاولة استعمارها مصاعب كبيرة)، والاستعمار الغربى كان ضروبًا وأصنافًا، فحل مشكلة الحصول على المواد الخام وتصريف السلع المباشرة كان يتطلب أن تسير الجيوش وتخضع البلاد التى تشكل مصدرًا للمواد الخام أو سوقًا محتملة للسلع فتسلبها الإرادة السياسية والاقتصادية وتحولها إلى مصدر أساسى للمواد التى يريدها المستعمر، وتحطم صناعاتها الأساسية التقليدية والجديدة لتحولها إلى سوق خصب للسلع، وهذا ما حدث فى مصر والهند، حيث تحولت مصر إلى مزرعة قطن لمصانع لانكشير، وكانت القوى الأوربية قد حطمت كل الصناعات التى أسسها محمد على وأغرقت مصر بالديون. هذا النوع من الاستعمار يمكن أن نسميه «الاستعمار التقليدي».

أما مشكلة تصريف «الفائض البشرى» فتتطلب نوعًا آخر من الاستعمار. فبعد أن كانت جيوش أوربا الاستعمارية تسيطر على بلد ما كانت تخصص مناطق معينة لتوطين السكان الأوربيين فيها، ومن هنا كانت تسمية هذا النوع من الاستعمار بـ «الاستعمار الاستيطانى أو السكانى». فإذا كان الاستعمار التقليدى يأخذ شكل جيش يغزو بلدًا مًا ثم يستغله ككل لصالح البلد الغازى، فإن الاستعمار الاستيطانى يأخذ شكل نقل مستوطنين أوربيين من بلادهم إلى البلد الجديد ليعيشوا فيه وليتخذوه وطنًا جديدًا لهم. ورغم اختلاف هذين النوعين من الاستعمار إلا أنهما مع هذا يشكلان وحدة لا تنفصم عُراها. فكلاهما يشكل بُعدًا استراتيجيًا للقارة الأوربية، وكلاهما يشكل قاعدة انطلاق. فالجيوش تحمى المستوطن، والمستوطن يشكل قاعدة سكانية للجيوش، ولا يمكن بأية حال فصل الاستعمار الفرنسى فى المغرب وتونس حيث كان يأخذ شكلاً تقليديًا، عنه فى الجزائر حيث كان

يأخذ شكلا استيطانيًا. وليس من قبيل الصدفة أن طلائع الاستعماريين الاستيطانيين الصهاينة وصلت إلى فلسطين فى عام ١٨٨٢م وهو نفس العام الذى دخلت فيه الجيوش البريطانية مصر.

ورغم ترابط مظاهر الاستعمار كلها إلا أننا يمكننا أن نتصور الأنماط الاستعمارية المختلفة على شكل هرم، قاعدته ما يسمى «الاستعمار الجديد» أو «النظام العالمى الجديد»، وهو أقل أنواع الاستعمار وضوحًا (وإن كان أكثرها شيوعًا فى الوقت الحاضر بعد سقوط الهيمنة الإمبريالية القديمة)، لأنه يلجأ إلى السيطرة الاقتصادية والسياسية عن طريق بعض أبناء البلد ذاتها، كما يمنحهم شيئًا من الاستقلال السياسى ويغويهم بحلم المشاركة فى استغلال الشعوب. ويعلو هذا النمط فى الدرجة الاستعمار التقليدى، حيث يمارس المستعمر الهيمنة السياسية والاقتصادية المباشرة، ويتحكم فى مقادير الشعوب عن طريق الغزو العسكرى المباشر والاحتفاظ بقوات عسكرية لتحمى مصالحه ضد القوى القومية المحلية. يعلو هذا النمط الأخير الاستعمار الاستيطانى، بأشكاله المختلفة:

١ - الاستعمار الاستيطانى الاندماجى، الذى يبدأ فيه العنصرالدخيل، بالهيمنة على السكان الأصليين ثم الاندماج معهم بعد حين، إلى أن يمتزج الطرفان كليةً مكونين كتلة إثنية جديدة (كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية).

٢ - الاستعمار الاستيطانى المبنى على التفرقة اللونية (كما هو الحال فى جنوب إفريقيا)، حيث يحتفظ العنصر السكانى الدخيل باستقلاله، ويلجأ إلى عزل السكان الأصليين داخل مناطق محدودة حتى يسهل استغلالهم (كما بيّنا من قبل).

٣ - فى أعلى الهرم يوجد الاستعمار الاستيطانى الإحلالى (كما هو الحال فى الولايات المتحدة وفى إسرائيل) حيث يظل العنصر البشرى

الدخيل محتفظًا باستقلاله عن السكان الأصليين، ثم يحاول التخلص منهم عن طريق إبادتهم ونقلهم خارج الحدود، فالآبار تهايد (الانفصال اللونى الكامل) لا يحل مشكلة الاستعمار الصهيونى بمنطلقاته الأيديولوجية (وإصراره على دولة يهودية خالصة). والاستعمار الإحلالى يضمن الاستقرار العنصرى والاجتماعى الداخلى للمجتمع الاستيطانى، وفى الوقت ذاته يشوه بشكل كامل البناء الاقتصادى والحضارى للسكان الأصليين الذى تم طردهم. وبذا يكون الاستعمار الصهيونى الاستيطانى/ الإحلالى أعلى مراحل الاستعمار وأكثر أشكاله شراسة وعنفًا.

هذا هو الإطار الذى تم من خلاله حل مسألة أوربا اليهودية: تصديرها إلى العالم العربى، وتأسيس دولة وظيفية، استيطانية إحلالية، بحيث تقوم الجماعة الوظيفية اليهودية التى فقدت وظيفتها بوظيفة جديدة، فبدلاً من التجارة والربا، ستقوم الدولة الوظيفية بالقتال دفاعًا عن المصالح الغربية.

□□□

المسألة الفلسطينية والإدراك الصهيونى

الظاهرة الصهيونية ظاهرة استعمارية استيطانية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة. وهذه المقاومة ليست إرهابًا وإنما هى فعل من أفعال المقاومة. وكما بيَّنا فى مقال سابق هذا ما أدركه بن جوريون نفسه عام ١٩٣٨ حين اعترف بأن مقاومة العرب ليست إرهابًا وإنما حرب قومية أعلنها العرب علينا. وأشرنا إلى موشيه شاريت بأن مقاومة الفلسطينيين للصهاينة هى ثورة الجماهير التى تمليها المصالح القومية الحقة.

وإدراك الواقع فى لحظة صدق لا يعنى البتة التعامل معه بطريقة أخلاقية أو واقعية، بل إن إدراك الصهاينة لحقيقة مشروعهم الصهيونى

الاستيطانى الإحلالى وأبعاد المقاومة العربية وعمقها قد يؤدى إلى مزيد من الشراسة. ولنضرب مثلاً على هذا النمط الصهيونى بفلاديمير جابوتنسكى - زعيم الحركة الصهيونى التنقيحية - الذى أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية مغتصبة للأرض والعرب أمر حتمى، فلم يختبئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية عن الحقوق اليهودية الأزلية، ولم تختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، أو الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعمارى الغربى الذى لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السيف، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تمامًا مثلما يتسلح المستوطنون الأوربيون فى كينيا وفى كل مكان)، أى طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيونى، فالعرب - حسبما صرَّح - لن يقبلوا الصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا أنفسهم فى مواجهة حائط حديدى.

إن نظرية الجدار الحديدى هى جزء من الإجماع الصهيونى التى طورها شارون إلى مفهوم «الجدار الفولاذى»، وأكد نتنياهو، ووافق بارك عليها بطريقة ملتوية مراوغة فى كتابه «مكان تحت الشمس» فى عبارة «سلام الردع».

ويتحدث إيان لوستيك فى مقال له بعنوان «إسرائيل ومنطق الجدار الحديدى» عن مراحل خمس لاستراتيجية الجدار الحديدى، لتحويل الصراع الوجودى بين الصهاينة والعرب الفلسطينيين إلى سلام قائم على التوافق وليس العدل، على النحو التالى:

المرحلة الأولى: بناء الجدار الحديدى.

المرحلة الثانية: حماية الجدار الحديدى من محاولات تصديعه.

المرحلة الثالثة: هزائم مكلفة تؤدى إلى تحولات لدى الخصوم، من متطرفين عنيدين إلى معتدلين على استعداد للمساومة.

المرحلة الرابعة: يدرك حماة الجدار الحديدى تحولات القوة من التطرف إلى الاعتدال داخل المعسكر السياسى للخصم، وذلك يدفعهم إلى تحويل سياستهم نحو التفاوض والمساومة.

المرحلة الخامسة: تؤدى المفاوضات إلى تسوية للصراع تقوم على جماعية متساوية.

ونفس النتيجة توصَّل إليها بن جوريون، إذ إن إدراكه للمقاومة العربية كان يحيِّده التزامه بالرؤية الصهيونية، ولذا توصَّل إلى أنه لا مناص من فرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحد السيف. ولذا لم يبحث الزعيم الصهيونى عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام - على حد قوله - مستحيل، كما لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا سراب بغير شك، إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوريون، «إن الشعب اليهودى لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لا تخدم هذا الغرض. ولذا فالاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن، [فالعرب] لن يستسلموا فى إرتس يسرائيل إلا بعد أن يستولى عليهم اليأس الكامل، يأس لا ينجم عن فشلهم فى الاضطرابات التى يثيرونها أو التمرد الذى يقومون به وحسب وإنما ينجم عن نمونا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة فى هذا البلد]. ثم استمر يقول: لا يوجد مَثل واحد فى التاريخ لأمة فتحت بوابات وطنها [للآخرين]. إن تشخيصى للموضوع أنه سيتم التوصل إلى اتفاق [مع العرب] لأننى أؤمن بالقوة، قوتنا التى ستنمو، وهى إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه». وهكذا تم عقد اتفاقيات «السلام مع العرب».

ولا يختلف شاريت عن هذه الرؤية التى تذهب إلى أن المثل الأعلى الصهيونى لابد أن تسانده القوة حتى يمكن فرضه على الواقع. وهو أيضًا يتبنَّى سياسة الحائط الحديدى، شأنه فى هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكى: «لا أعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا. ولكنى أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقًا ثابتًا مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسى هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما باعتبارنا قوة فعلية».

وقد أدرك وايزمان منذ البداية أن أى سلام مبنى على العدل - أى يؤدى إلى إعطاء الفلسطينيين حقوقهم السياسية والدينية والمدنية كافة- عواقبه وخيمة، إذ سيؤدى إلى «سيطرة العرب على الأمور». فلو تم تأسيس حكومة فى إطار هذا السلام العادل، فإن العرب سيمثَّلون فيها، وهى حكومة ستتحكَّم فى الهجرة والأرض والتشريع - وبذا سيحقق الصهاينة السلام - ولكنه «سلام المقابر» (على حد قوله). والصهاينة شأنهم شأن كل من فى موقفهم، وكانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم، وإنما للآخرين. ولذا فالاتفاق الذى يتحدث عنه جابوتنسكى ثم بن جوريون وشاريت ووايزمان ليس اتفاقًا مع العرب باعتبارهم كيانًا مستقلاً له حقوقه وفضاؤه التاريخى والجغرافى، إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه أو ترويضه عن طريق القوة والحائط الحديدى، ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التى يفرضها الآخر. وهذه رؤية ولاشك واقعية: إذ كيف يمكن أن يتوقع أحد من العرب أن يخضعوا طواعية لرؤية تلغى وجودهم؟

هذا - على كلٍّ - ما أدركه العرب منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلنة عن السلام والحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية

والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون حقيقة الصهيونية وأنها تحاول أن تغيبهم أو تهمشهم لأنهم - حسب التصور الصهيونى - كائنات غائبة (أرض بلا شعب) أو متخلفة أو هامشية لا تفهم سوى لغة القوة، وأنهم قد يكتفون فى نهاية الأمر بدولة لا سيادة لها، وأنهم سيستمرون خائفين قانعين بحياتهم المتخلفة. فجاءت انتفاضة ١٩٨٧، وظهر العرب الغائب وفى يده حجر يُلقى به على الصهيونى وعلى أوهامه، فيشج رأسه ويزلزل الأسطورة، ويتنبه هذا الصهيونى فجأة إلى أنها أرض لها شعب!

ثم جاءت انتفاضة الأقصى والاستقلال لتقضى على بقية الأوهام الصهيونية وتساقطت مقولتا العربى المتخلف والعربى الهامشى، فتفككت الخريطة الإدراكية الصهيونية، فجُن جنون الصهاينة، فلجأت المؤسسة الصهيونية (التى طالما تحدثت عن إسرائيل باعتبارها واحة للديمقراطية) إلى ضرب العسكريين والمدنيين بالطائرات والمدافع والرشاشات، وبدأ الاغتيال لمؤسسى للقيادات الفلسطينية والاغتيال العشوائى للنساء والأطفال وكل من يقف فى طريق جيش الاحتلال. وانتهى الأمر بوصول شارون الذى وعد بالقضاء على الانتفاضة فى مائة يوم، وقد انقضت المهلة دون أن ينجح فى تحقيق وعده، وليس هناك فى الأفق ما يبشر بأنه سيُكتب له النجاح.

□□□

عيد «استقلال» الدولة الاستيطانية

لجأت كثير من الحركات العنصرية الفاشية إلى تبنى المصطلحات الدينية وتفريغها من محتواها الأخلاقى والروحى، واستخدامها فى تعبئة الجماهير خلف صفوفها. والصهيونية من أكثر الحركات العنصرية حذقًا فى هذا المضمار. وقد طوَّرت خطابًا عنصريًا باطشًا من خلال تبنى المصطلحات الدينية اليهودية التقليدية، فإرتس يسرائيل أو صهيون تعنى

فى السياق الدينى أن يحب اليهودى أرض الميعاد ولا يستولى عليها، بل ولا يعود إليها إلا آخر الأيام بأمر إلهى. لكن الصهاينة استولوا على المصطلحات الدينية ثم استخدموها فى تجنيد جماهير يهود شرق أوربا. فصهيون بالنسبة للصهاينة لم تكن أرضًا ذات قداسة خاصة، وإنما كانت مجرد أرض يُنقل إليها اليهود لأسباب مادية. ولم يطالب هرتزل بالقدس، وإنما طالب بالأرض العلمانية فقط (على حد قوله): أرض صالحة للتقسيم والتوزيع والاستيطان. ولذا يصبح من الممكن على الصهاينة أن يستولوا على هذه الأرض لتصبح جيبًا استيطانيًا يضم بعض أعضاء الجماعات اليهودية ممن نبذتهم المجتمعات الغربية. وعادةً ما تنتهى مصادرة المصطلح الدينى لصالح الأهداف المادية بأن تصبح الأمور الدنيوية أمورا مقدسة. وهذا ما حدث بالنسبة لذكرى إعلان الدولة الصهيونية (١٤ مايو حسب التقويم الميلادى - ٥ آيار حسب التقويم اليهودى). فإعلان الدولة الصهيونية كان يعنى فى واقع الأمر الاستيلاء على أرض الفلسطينيين وإبادة بعضهم وطرد البعض الآخر وتأسيس جيب استيطانى. إحلالى مبنى على العنف والبطش.

كل هذا يختفى وبدلاً من ذلك يتحول ١٤ مايو إلى مناسبة قومية تكتسب أبعادًا دينية. ولذا تأخذ الاحتفالات شكلاً قوميًا/ دينيًا (وهذا تعبير عن محاولة الصهاينة ربط العقيدة اليهودية بالرؤية القومية الزمنية).

١ - الشكل القومى: تبدأ احتفالات العيد على جبل هرتزل فى القدس بجوار مقبرته. ويبدأ المتحدث باسم الكنيست الاحتفال بأن يوقد شعلة، ثم اثنتى عشرة شعلة أخرى رمزًا للقبائل العبرية الاثنتى عشرة، ثم يسير حملة المشاعل فى استعراض. وكان الاستعراض العسكرى للقوات المسلحة الإسرائيلية، والذى كانت تُعرَض فيه أحدث الأسلحة التى حصلت عليها الدولة، أهم فقرات الاحتفال، ولكنه توقّف بعد عام ١٩٦٨. وقد حل محله

الآن استعراض عسكرى لفصائل الجدناع. وتُقام احتفالات رياضية وراقصة، كما تُمنَح جوائز إسرائيل فى ذلك اليوم. وينتهى الاحتفال بإطلاق المدافع، على أن يكون عدد الطلقات مساويًا لعدد سنى الاستقلال، ولهذا فقد أطلقت أربعون طلقة عام ١٩٨٨.

٢ - الشكل الدينى: يبدأ الاحتفال بقراءة المزامير (١٠٧، ٩٦، ٩٨)، وينتهى بالنفخ فى البوق (شوفار) الذى لا يُستخدَم إلا فى المناسبات الدينية الجليلة مثل عيد رأس السنة (روش هشَّاناه). وتُتلى العبارات التالية: «فلتكن مشيئتك أن تجعل من نصيبنا أن نسمع الشوفار يعلن مقدم الماشيح سريعًا، كما جعلت من نصيبنا أن نرى بداية الخلاص». وتُعدَّل الصلوات فى ذلك اليوم، كما هو الحال دائمًا مع الأعياد اليهودية.

وبرغم صبغ المناسبة القومية بصبغة دينية فاقعة، فإن بعض العناصر التى يقال لها «دينية» فى إسرائيل لا ترى أن تعبير الحاخامية عن أهمية المناسبة كاف. وبالفعل، فقد أدخلت هذه العناصر كثيرًا من التعديلات على الصلوات، كما قرروا قراءة أجزاء من التوراة (من سفر التثنية ٧/ ١ - ٨/ ١٨ و ٣٠/ ١ - ٠١). وهناك دعوة الآن إلى إلغاء يوم الصيام الخاص بهدم الهيكل وبسقوط القدس فى أيدى الرومان باعتبار أنه تم استردادها كما تم إنشاء الهيكل الثالث (الدولة الصهيونية).

وقد قامت الأوساط غير الدينية، هى الأخرى، بصياغة قراءات وأدعية للاحتفال بهذا اليوم على نمط الاحتفال بعيد الفصح. وقد كتب المؤلف الإسرائيلى حاييم حزاز هاجاداه (كتاب صلوات) للجيش الإسرائيلى بهذه المناسبة. أما وزارة المعارف، فقد نشرت مختارات وأدعية، وقررت شرب ثلاث كئوس من الخمر (على غرار الكئوس الأربعة فى عيد الفصح): أولاها

للدولة، والثانية للقوات المسلحة، والثالثة للشعب اليهودى. ومن بين الإضافات الأخرى، إعلان عدد السنوات التى مرت منذ استقلال الدولة قبل النفخ فى البوق (شوفار) فى صلاة المساء، وهم فى هذا يتبعون نمطًا دينيًا معروفًا لدى يهود اليمن الذين يتبعون النهج السفاردى، إذ يُتلى دعاء يذكر فيه المصلون السنوات التى مرت منذ هدم الهيكل. أما العبارة التى تُتلى فى عيد الاستقلال فى إسرائيل، فهى: «اسمعوا يا إخوتى،... اليوم [كذا] مضت [كذا] سنوات منذ بداية خلاصنا، وعلامته تأسيس الدولة». ولعل تغيير الصلوات والأدعية للتعبير عن المناسبة القومية، وكذلك صياغة الاحتفال بعيد الاستقلال على نمط الأعياد اليهودية، خصوصًا عيد الفصح، تعبير آخر عن تداخل الجانب الدينى والجانب القومى، والمطلق والنسبى، الذى هو بدوره تعبير عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجى اليهودى.

ولكن هناك فريقان لا يريان أن إعلان دولة إسرائيل مناسبة للفرح والغبطة:

١ - الفريق الأول هو جماعة الناطورى كارتا، وهى عبارة أرامية تعنى «نواطير المدينة»، أى حراس المدينة. والمدينة هى مدينة القدس، باعتبارها رمزًا لأرض صهيون بالمعنى الدينى. هذه الجماعة ترى أن الصهيونية مؤامرة شيطانية ضد اليهود واليهودية، وأنها تقوم بتطويع العقيدة اليهودية لخدمة المآرب العلمانية الصهيونية. وجماعة ناطورى كارتا تمثّل أقلية صغيرة للغاية، ومع هذا ينبغى أن نشير إلى أن موقف الناطورى كارتا كان هو الموقف اليهودى الأرثوذكسى قبل «صهينة اليهودية» وقبل مصادرتها لحساب الرؤية الصهيونية. وتعتبر جماعة الناطورى كارتا يوم استقلال إسرائيل يوم صوم وحداد، ويحرقون فيه علم إسرائيل.

٢ - الفريق الثانى هو عرب فلسطين المحتلة، فهم يعرفون تمامًا أن «استقلال إسرائيل» يعنى نجاح الجماعات الإرهابية الصهيونية، بدعم كامل من العالم الغربى، فى أن تؤسَّس دولة استيطانية استعمارية لا تختلف عن الجيوب الاستيطانية فى جنوب إفريقيا أو الجزائر، ولذا فهم يشيرون لاستقلال إسرائيل على أنه «النكبة» باعتبار أنه ذكرى ما حلّ بهم من تشريد وتشتيت واستبعاد. وفى إطار انتفاضة الأقصى والاستقلال، قرر المتنفضون أن يحتفلوا باستقلال إسرائيل على طريقتهم الخاصة، وهى أن يذكّروا المستوطنين بأن عيد استقلالهم هو فى واقع الأمر ذكرى اغتصاب الأرض وأن المستضعفين، قد يصمتون بعض الوقت، ولكن تأتى اللحظة التى يهبون فيها، ولذا وضعت الدولة الصهيونية القوات الإسرائيلية على أهبة الاستعداد وأغلقت كل المنافذ للأراضى التابعة للسلطة الفلسطينية، أى إن الدولة الصهيونية اضطرت إلى إسقاط جميع أقنعة القداسة والحداثة والحضارة، وإلى الإفصاح عن وجهها الحقيقى فى عيد استقلالها، أى فى عيد اغتصابها الأرض الفلسطينية وتشريدها للشعب الفلسطينى.

□□□

حرب قومية

صنفنا الظاهرة الصهيونية على أنها ظاهرة استعمارية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة. وتتسم الرؤية الصهيونية الاستيطانية (والرؤى الاستيطانية على وجه العموم) بأنها تحاول أن تنكر تاريخ الأرض التى احتلها المستوطنون، فسكان فلسطين غائبون، ففلسطين - حسب تصوُّرهم - هى أرض بلا شعب. ولكن هذه ا لرؤية العنصرية أحيانًا ما تتساقط فى لحظات صدق نادرة تتجاوز الاعتذاريات الصهيونية البلهاء. وفى مثل هذه اللحظات يدرك

الصهاينة أن الأرض مأهولة وأنهم اغتصبوها من أهلها وأنهم سيشتبكون معهم. ففى خطاب له فى ٩ يوليه ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب الماباى عرَّف موشيه شاريت الثورة العربية بأنها ثورة الجماهير التى تمليها المصالح القومية الحقة، وأضاف أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التى تضم العراق والحجاز واليمن، ففلسطين بالنسبة لهم هى وحدة مستقلة لها وجه عربى، وهذا الوجه آخذ فى التغير، فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية، وها هى ذى قد أضحت يهودية. ورد الفعل - كما أكد شاريت - لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفى ٢٨ سبتمبر من العام نفسه، كان شاريت قاطعًا فى تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة، كما لاحظ وجود عناصر جديدة فى حركة المقاومة: اشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات فى حركة المقاومة، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبيَّن أن من أهم دوافع الثورة الرغبة فى إنقاذ الطابع العربى الفلسطينى وليس مجرد معارضة اليهود.

وقد توصَّل بن جوريون لنفس النتائج وبطريقة أكثر تبلورًا عام ١٩٣٨ حين قال: «نحن هنا لا نجابه إرهابًا وإنما نجابه حربًا، وهى حرب قومية أعلنها العرب علينا. وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب لما يعتبرونه اغتصابًا لوطنهم من قبل اليهود - ولهذا يحاربون، ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات، يجب ألا نبنى الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، فإذا ما نال من أحدهم التعب، سيحل آخرون محله. فالشعب الذى يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعًا.. وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا - فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب. ومن الناحية

السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتي ونستوطن، ونأخذها منهم، حسب تصوُّرهم».

أقوال شاريت وبن جوريون تنم عن إدراك عميق للوجود الصهيونى باعتباره وجودًا استيطانيًا إحلاليًا، وللمقاومة العربية باعتبارها ثورة المقهورين ضد الظلم. ولكن الاستعمار الاستيطانى الإحلالى الصهيونى، مثل أية ظاهرة أخرى، له خصوصيته التى تميِّزه، التجارب الاستيطانية الأخرى. وتنبع هذه الخصوصية من عنصرين أساسيين:

١ - فشل الجيب الاستيطانى الإحلالى الصهيونى فى إبادة السكان الأصليين الذى يعود للأسباب التالية:

(أ) يتكون الفلسطينيون من جماعة بشرية موحدة لها تاريخ طويل وتراث مركب، وهى جماعة، فى غاية التركيب والوعى، قادرة على استخدام كل الأسلحة الممكنة بما فى ذلك الإعلام، ومثل هذه الكتلة ليست سلبية، تجلس فى مكانها دون حراك، بينما يقوم عدوها بذبحها ذبح الشاه.

(ب) منذ نهاية القرن التاسع عشر (تاريخ الاستيطان الصهيونى) أصبح أصغر فى حجمه وأكثر اتصالاً بسبب وسائل المواصلات ووصول الإعلام إلى كل أرجائه. وقد تزايدت هذه العملية، مما يجعل عمليات الإبادة أمرًا مستحيلاً، فهى عادةً ما تتم وراء ستار كثيف من الصمت، حتى لا يحتج أحد.

(جـ) توجد فلسطين فى وسط العالم القديم ومن ثم يصعب إبادة سكانها.

(د) يحيط الفلسطينيين دول عربية تضم جماهير متعاطفة مع الفلسطينيين وقضيتهم وتزودهم بالعون.

٢ - تزايد عدد السكان الأصليين وتصاعد كفاءتهم:

نجم عن فشل الجيب الصهيونى فى تصفية السكان الأصليين عدة نتائج من أهمها ما يسمَّى «المشكلة الديموجرافية (السكانية)»، أى تزايد عدد الفلسطينيين بدرجة كبيرة، مما يهدد الطابع اليهودى الإحلالى لهذا الجيب. والفلسطينيون لا يتزايدون فى العدد وحسب وإنما تزداد نسبة المتعلمين بينهم ويتحسن أداؤهم وتتزايد مقاومتهم يومًا بعد يوم.

وقد فاقم من هذه المشكلة الديموجرافية عنصران: جفاف ينابيع المادة البشرية الاستيطانية (خاصةً بعد الهجرة السوفيتية الأخيرة، واضعين فى اعتبارنا أن يهود العالم الغربى لا يهاجرون قط) وضم الجيب الصهيونى للضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧ اللذين يتسمان بكثافة بشرية عربية.

كل هذا أدى إلى اتضاح زيف الافتراض الصهيونى المبدئى أن فلسطين أرض بلا شعب، مما يعنى أن فرض الأسطورة الصهيونية على الواقع يحتاج إلى مزيد من العنف. ولكن العنف لا يؤدى إلى تخفيف وطأة الهاجس الأمنى. فالإسرائيلى يعيش فى خوف دائم من العرب، وهو محق فى خوفه هذا، فقد اغتصب أرضهم وشردهم وهو يعلم أنهم لن يستسلموا ولن يقبلوا وضعهم هذا. ولذا نجد أن كل اتفاقيات «السلام» اتفاقيات أمنية تهدف بالدرجة الأولى لتحقيق أمن إسرائيل، هذا الشىء المستحيل (وقد أخبرنى أحد الأطباء النفسيين فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ أن المرضى النفسيين الإسرائيليين قد استبعدوا العربى تمامًا من أحلامهم وكوابيسهم، مما يعنى أن خوفهم قد بلغ من العمق أنه تم استبعاد العرب تمامًا، حتى على مستوى اللاوعى).

ولا شك فى أن الإسرائيليين يعرفون مصير ممالك الفرنجة كما يعرفون أن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التى قُدِّر لها البقاء (مثل أمريكا الشمالية وأستراليا) نجحت لأنها أبادت السكان الأصليين. أما تلك التى لم تنجح فى ذلك (مثل الجزائر وأنجولا وجنوب إفريقيا) فقد تم تصفيتها. وهو يعرف أنه لا يوجد أى سبب لأن يمثل الجيب الاستيطانى الصهيونى استثناء لهذه القاعدة التاريخية العامة. ولابد أن انتفاضة الأقصى قد رسَّخت هذا الإدراك.

□□□